المحاضرة السابعة: المقاومات الشعبية في الجزائر فالفترة من 1830م إلى غاية 1919م

مرت مقاومة الشعب الجزائري للاحتلال الفرنسي بمرحلتين؛ أما المرحلة الأولى فتعرف بمرحلة المقاومة المنظمة (1830 – 1847)، والتي تميزت باتساع رقعتها الجغرافية وطول مدتها وقيادتها الموحدة، بالإضافة إلى اعتمادها على تنظيمات سياسية وإدارية وعسكرية محددة، وأهداف وطنية واضحة المعالم تمثلت في طرد المستعمر الفرنسي و قيام دولة الجزائر الحديثة، والمرحلة الثانية التي تسمى بمرحلة المقاومة الشعبية التي تبدأ من سنة 1847وإلى غاية مطلع القرن العشرين، غير أنها افتقرت إلى العناصر والعوامل السالفة الذكر، وفيما تفصيل ذلك:

أولا: المقاومات الشعبية المنظمة (مقاومة الأمير عبد القادر وتنظيم دولته، مقاومة أحمد باي)

عرفت الجزائر في النصف الأول من القرن التاسع عشر مقاومة عنيفة ضد الاحتلال الفرنسي، إلا أن هذه المقاومة اتسمت بالإقليمية، فقسمت البلاد إلى شطرين أساسيين، مقاومة بالغرب الجزائري، تزعمها قائد من أبناء البلاد، حديث العهد بالحكم والسياسية، وهو الأمير عبد القادر بن محى الدين، ومقاومة في الشرق تزعمها الحاج أحمد باي قسنطينة الذي اعتبر نفسه الوريث الشرعي للدولة العثمانية في الجزائر بعد استسلام الداي حسين.

مقاومة الأمير عبد القادر (1832-1847م)

مراحل مقاومة الأمير عبد القادر:

أ-مرحلة الانطلاق والقوة (1832-1837):

– ظلت المبادرة العسكرية فيها والتفوق على الأرض غالبا لصالح قوات الأمير، وتوجت بإبرام معاهدة تافنة التي اعترف الفرنسيون فيها بدولته ومن أهم نشاطات وحوادث هذه المرحلة:

– شروع الأمير في تشكيل حكومته سنة 1833، وتعيين القضاة، وتنصيب الولاة في مختلف أنحاء الإمارة، كما شكل مجلساً للشورى ضم 11 عضوا من كبار علماء الامارة، واتخاذ معسكر عاصمة له.

– عمل الأمير على توحيد القبائل تحت سلطته كما ألزمها بالتشبث بأرضها.

– مقاطعة المحتلين ومحاصرة مراكزهم في وهران ومستغانم وحملهم على الخروج من معاقل للقتال بالداخل واعتبار المتعاونين معهم مرتدين عن الإسلام.

– تنشيط مدن الداخل والسهول العليا كتلمسان وملیانة والمدية وقصر البخاري.. وجعلها محاور اقتصادية واجتماعية وعسكرية للدولة.

– إعلان نوع من الولاء لسلطان المغرب للحصول على المساعدات المادية والتسهيلات

– اشتداد وطأة الحصار الاقتصادي المفروض على الفرنسيين في وهران ومستغانم وأرزيو، مما اضطرهم إلى مهادنة الأمير، الذي اعتبر ذلك فرصة لتوطيد مركزه وحيازة اعتراف العدو به، فأبرم مع قائد قوات الاحتلال الجديد بوهران الجنرال دي ميشال معاهدة ديميشال في26 فيفري1834، نصت خاصة على وقف القتال، وحرية التجارة، وانفراد الأمير ضمنياً بالسلطة في سائر أنحاء الغرب الجزائري باستثناء وهران ومستغانم وأرزيو استغل الأمير الهدنة لتوسيع نفوذه وتقوية جيشه.

– أقلق تزايد نفوذ الأمير المحتلين، فعزلت الحكومة الفرنسية ديمشال عن قيادة وهران، وعينت بدلاً منه داعية الحرب الجنرال تريزيل، فنقض المعاهدة فكان ذلك سبباً في استئناف الجهاد من طرف الأمير، وانتصاره يوم 28 يونيو سنة 1835 في معركة المقطع.

– واصل الأمير صموده، فرأى الفرنسيون أن يهادنوه ثانية ريثما يتسنى لهم الإجهاز على مقاومة أحمد باي ثم يتفرّغون لقتاله بعد ذلك، فكتب الجنرال بوجو سنة 1837 يعرض الصلح على الأمير، فمال الأخير إلى الهدنة توخياً لتخفيف معاناة الشعب الجزائري، والتقاط الأنفاس، وتوسيع نفوذه في البلاد، وحيازة اعتراف فرنسا به مما قد يكسبه الاعتراف الدولي مستقبلاً، ويؤكد اعتداء فرنسا على بلاده وشعبه، وقد أدت الاتصالات بين الطرفين إلى إبرام معاهدة وادي تافنة في20 ماي 1837م.

ب–مرحلة تنظيم الدولة: (1837–1839)

ومن أهم إنجازات هذه المرحلة على صعيد بناء الدولة الجزائرية ومحاولة تثبيت أركانها:

– توحيد كافة الجزائريين تحت راية واحدة ولو أدى ذلك إلى استخدام القوة كما جرى مع أتباع الطريقة التجانية، ومع أحمد باي وكثير من القبائل الخارجة عن الطاعة في الشمال والجنوب.

– إنشاء دولة جزائرية حديثة قادرة على سد الفراغ الناشئ عن خروج العثمانيين من الجزائر، والقضاء على طموحات محبي الرياسة والزعامة المحليين.

– إنشـــاء وتطوير الجيش والذي بلغ تعداده عام 1838 حســـب الجاســـوس ليون روش إلى 58 الف رجل، منهم 5960 جندي نظامي يمكن للأمير أن يجندهم في مختلف المقاطعات.

– تقسيم الجزائر إلى ثماني مقاطعات أو ولايات على رأس كل منها خليفة أو والي تابع لسلطة الامير

– العمل على إعادة تنظيم الحكومة والتي كانت قد تأسست في العام 1833م

– قيام الأمير بشراء الأسلحة من الخارج وإنشاء مصانع السلاح والذخيرة والبارود أهمها مصنع الأسلحة بمليانة، مطحنة البارود بقلعة سيدي راشد، وشيد عدد من الحصون والقلاع وأصلح البعض منها لتكون مواقع لتمركز القوات وخفظ الامن والمراقبة أهمها: تكدامت، سبدو، بوغار، وسعيدة وغيرها.

– إقامة جهاز قضائي يستمد أحكامه من الشريعة الإسلامية، وقد حرم الأمير البغاء وشرب ولعب الورق بين الجنود ومنع التدخين كما أظهر حرص الأمير الشديد على تطبيق مراعاة قواعد العدل والصرامة في تنفيذ الاحكام

– تشـــجيع التعليم من خلال العناية بالزوايا وإمداداها بالمعلمين والمســـاعدات المالية وكذا الاهتمام بجمع الكتب والمخطوطات والحفاظ عليها.

– صـك عملة جزائرية عرفت ب "المحمدية" في سـنة 1836م، وتنويع وزيادة مداخيل الخزينة بالاعتماد على أموال الزكاة والعشـور والضـرائب المسـتحدثة لدعم الجهاد، وكذا رسـوم الأسـواق وحقوق الجمارك وغيرها من الموارد التي ساعدت الأمير على بناء دولته الناشئة.

– إقامة العلاقات الدبلوماســـية الخارجية منها مع بريطانيا بغرض شـــراء الأســـلحة وكذلك من المغرب الذي كان المصدر الأساس للمساعدات الخارجية قبل أن يتحول موقف السلطات المغربية إلى الجفاء والعداوة.

3-مرحلة الضعف والتسليم (1839-1847م)

– تفطن الفرنسـيون لخطورة ما يقوم به الأمير عبد القادر فعملوا على نقض معاهدة تافنة وإشـعال الحرب من جديد وبالفعل كان لهم ذلك وحجتهم في ذلك توسع الأمير نحو أراضي الشرق الجزائري باعتباره خرقا للاتفاقية بزعمهم.

– حاول الأمير عن طريق إرســـال مبعوثه الميلود بن عراش إلى الملك الفرنســـي لأجل الابقاء على المعاهدة لكن الفرنسيين كلهم كانوا متفقين على ضرورة القضاء على الأمير بعد احتلالهم لقسنطينة، فأعيد تعين المارشال بيجو الذي سيستعمل كل الوسائل للقضاء على دولة الأمير حيث منحته السلطات الفرنسية كل الصلاحيات.

– باشر الجنرال بيجو مهمته معتمدا على قوات كبيرة لشن حرب شاملة على المناطق الخاضعة للامير وكذا على الهجوم على القبائل الموالية للامير والتنكيل بها وسلب مواشيها وكذا اغلاق الحدود في وجه تلك القبائل لمنعها من اللجوء إلى المغرب ومنع دخول الأسلحة والمساعدات.

– تمكن الفرنسيون من من احتلال عدة مدن هامة تابعة لدولة الامير وخربوا واحرقوا الكثير من القرى والمداشر وقد بدأت عواصم الأمير تسقط الواحدة تلو الأخرى (معسكر – تاكدامت– مليانة–المدية...) فاتخذ الأمير عاصمة متنقلة وهي الزمالة التي كانت ضـــمت خيرة الممتلكات المادية والخبرات البشـــرية التابعة للأمير، وقد وابتعد عن المواجهة العسكرية واعتمد أسلوب الكر والفر، لكن تمكن الفرنسيون من الاستلاء على الزمالة سنة 1843 وبذلك ضاعت معظم الإمكانات الحربية والمالية المتبقية لدولة الأمير.

– حاصر الفرنسيون الأمير من كل جهة ودخلوا في مواجهة مباشرة مع سلطان المغرب الذي سينهزم في معركة إيزلي 1844م وسيجبره الفرنسيون على محاربة الأمير واعتباره خارجا عن القانون، وهنا أصبحت هزيمة الأمير مسألة وقت فالأمير أصبح يواجه الجيش الفرنسي وسياسة الأرض المحروقة من جهة والجيش المغربي بعد معاهدة لالة مغنية من جهة أخرى دون أن ننسى الجزائريين الذين انقلبوا على الأمير وأصبحوا موالين لفرنسا

– استطاع الأمير أن يحقق بعض الانتصارات على الفرنسيين مثل انتصاره في معركة سيدي ابراهيم 1846م التي أسر فيها الأمير فرقة كاملة من الجيش الفرنسي، كما استطاع الأمير أن يهاجم مدينة الجزائر حيث لم يكن يتوقع الفرنسيون هجومه هذا.

– لكن دخل الأمير في مواجهة مباشرة مع الجيش المغربي رغم أن الأمير استطاع هزيمة ابن السلطان وعاد من الأراضي المغربية إلى الأراضي الجزائرية وهنا لم يبق أمام الأمير إلا خيارين إما أن يسلم نفسه للسلطان المغربي وهذا أمرا كان محال بالنسبة له ولمن معه، وإما أن يفاوض الفرنسيين على وقف القتال مقابل شروط، فراسل الامير في 21 سبتمبر 1847م لامورسيار يقترح عليه أن يوقف القتال مقابل الأمان وأن يرحل إلى الاسكندرية أو عكا.

– سلم الأمير نفسه في "سيدي "إبراهيم" قرب ميناء الغزوات يوم ديسمبر 1847م، على أن ينقلوه الفرنسيون إلى عكا أو الإسكندرية لكنهم أوهموا به ونقلوه إلى طولون ثم مدينة بو وأخيرا إلى قلعة أَمْبُوَازُ بأُورْلِيَانُ حيث وضع في

السجن لمدة أربع سنوات ونصفا"، ثم أطلق سراحه له، فاختار دمشق منفى له، وقضى بها بقية حياته حتى توفي فيها سنة 1883م عن عمر يناهز 76 عاما.

مقاومة أحمد باي 1830-1848

في الوقت الذي كان الأمير عبد القادر يُقارع الفرنسيين في الغرب كان أحمد باي يواجههم في الشرق، وقد استمرت مقاومته 18 عاما حافلة بالكفاح، وبالتي يمكن تقسيمها إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى (1830-1837): ومن أهم الاحداث التي عرفتها هاته المرحلة مايلي:

- محاولة أحمد باي إقناع السلطان العثماني بالاعتراف به واليا على الجزائر، وإمداده بمساعدات عسكرية يستعين بها على قتال الفرنسيين، لكنه لم يحظ منه سوى بوعود وتشجيعات، وذلك خوفا من فرنسا التي لم يتردّد سفيرها في اسطمبول في الإعلان أن بلاده ستعتبر توجيه رتبة الباشا إلى باي قسنطينة بمثابة إعلان حرب عليها.
- حاولت فرنسا استمالة أحمد باي مراراً، فعرضت عليه الاعتراف به بايا على قسنطينة مقابل دخوله في طاعتها، ودفع ضريبة سنوية، فرفض بعدما اتضح له أن الفرنسيين غير صادقين، بل يريدون خداعه وتفويت الفرص عليه ليتمكنوا من تحطيمه
- لما يئست فرنسا من استمالة أحمد باي، قررت غزو قسنطينة ووضع حد لمقاومة أحمد باي، فجهزت حملة قوامها نحو 8700 رجل، خرجت من عنابة يوم 8 نوفمبر 1836 بقيادة الحاكم العام الاستعماري المارشال كلوزيل، غير أن أحمد باي تمكن من هزيمتهم وكبدهم خسائر جسيمة فانسحبوا إلى عنابة.
- بعد إبرام الفرنسيين معاهدة التافنة مع الأمير عبد القادر، تفرغوا مجدّداً لقتال أحمد باي، فسيروا حملة كبيرة إلى قسنطينة بقيادة الحاكم العام دامريمون ضمّت 20 ألف رجل، ومدفعية قوية بقيادة الجنرال فالي، وقد تمكن الفرنسيين

هذه المرة من إسـقاط مدينة قسـنطينة ونهبها بعد اسـتشـهاد المئات من المجاهدين دفاعا عن الارض والعرض، في حين انسحب أحمد باي مع من بقي من جنوده نحو بسكرة.

المرحلة الثانية (1837-1848):

– فرضـت الظروف على احمد باي التوجه نحو الجنوب إلى منطقة الزيبان بلد أخواله، والإطاحة بخليفة الأمير عبد القادر على المنطقة فرحات بن سـعيد، عوض ملقاة العدو الفرنسـي امتثالا لرأي خاله، غير أنه لم ينجح في الأخير من حكم المنطقة وبقي أحمد باي متنقلا بين مختلف القبائل في الأوراس والصـحراء في غاية عام 1848 يتكبد فيها المشاق، ويتعرض للمضايقات من الفرنسيين تارة ومن خصومه الجزائريين تارة أخرى.

–اشتبك خلال تلك المدة مع قوات العدو الفرنسـي في معارك كثيرة، انهزم في بعضـها وانتصـر في أخرى، ففي سنة 1843م تغلب أحمد باي على طابورين فرنسـيين في نواحي الحضـنة، واتجه في السـنة الموالية إلى منعة بمنطقة الاوراس، اشـتبك مع الدوق دومال ابن الملك لويس فيليب في ربيع سـنة 1844 وانتصـر عليه أحمد باي انتصـارا عظيما بعد معركة دامت ثلاثة أيام.

–وفي تلك الأثناء تقدّمت سـن أحمد باي وقل أنصـاره، وفَقَدَ مَوَارِدَهُ المالية، وتكاثر المتآمرون عليه من الجزائريين، وحاصره الفرنسيون بالتعاون مع عملائهم، فاضطر إلى مكاتبة سان جرمان حاكم بسكرة في 2 يونيو 1848 عارضاً عليه الاستسلام مقابل استعادة أملاكه والسماح له بالسفر إلى المشرق.

وفي الأخير استسلم للفرنسيين ببسكرة يوم 5 يونيو 1848، فنقلوه إلى العاصمة وخصصت له السلطات الاستعمارية مسكنا ومنحة شهرية، لكنها لم تسمح لـــه بالهجرة وتوفي سنة 1850 عن عمر يناهز 65 سنة، ودفن بمقبرة ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي.

ثانيا: المقاومات الشعبية غير المنظمة (من 1847 إلى غاية 1919م)

رغم فشل مقاومة الأمير عبد القادر وأحمد باي في تحقيق الانتصار على العدو الفرنسي وانهيارها سنة 1848م غير الجزائريون استمروا في مواجهة الاستعمار عبر مختلف المناطق والاقاليم الجزائرية إلى غاية مطلع القرن 20، وانضـــموا إلى ما يعرف بالمقاومات الشـــعبية التي كانت أقل تنظيما وفعالية من المقاومات المنظمة التي ســـبقتها والجدول التالي يبين الإطار العام للمقاومات الشعبية فالجزائر خلال هذه الفترة:

المقاومة	الاطار الزماني	المناطق	القيادة
مقاومة بومعزة	1845إلى 1947م	الظهرة، الونشريس، مستغانم، الحضنة	محمد بن عبد الله الملقب بومعزة
ثورة الزعاطشة	من 1849إلى 1850م	الاوراس، الزيبان، بوسعادة	بوزيان الشريف بوعمار
ثورة القبائل	من 1851 إلى 1857م	منطقة القبائل، بجاية، البويرة، بومرداس،	الشريف بوبغلة، لالا فاطة نسومر
ثورة الاوراس	1858م	الاوراس، خنشلة، عين البيضاء، بسكرة	محمد بن عبد الله
ثورة بني سناسن	1859م	الغزوات، تلمسان	/
ثورة أولاد سيدي الشيخ	1864إلى 1880م	البيض، تيارت، سعيدة، فرندة، صور الغزلان	سليمان بن حمزة، معمر بن الشيخ بن الطيب
انتفاضة المقراني والحداد	1871إلى 1872م	سطيف، البرج، منطقة القبائل، بومرداس	الشيخ المقراني، الشيخ الحداد
مقاومة الشيخ بوعمامة	1881إلى 1883م	عين الصفراء، تيارت، فرندة، سعيدة، عين صالح	الشيخ بوعمامة بن عربي
مقاومة الصحراء	من 1906إلى 1919م	ميزاب، ورقلة، الهقار، جانت، تندوف	أحمد سلطان الشيخ عبد السلام
انتفاضة الاوراس	1916 –1917م	عين مليلة، باتنة، عين فكرون، خنشلة	بن علي بن نوي، الشيخ مقدم زغان

ثالثا: أسباب فشل المقاومات الشعبية

بغض النظر عن الانجازات والنتائج التي حققتها المقاومات الشعبية يمكن إجمال أسباب فشلها في العناصر التالية :

-غياب عنصر التنظيم القادر على تحديد مكامن القوة والضعف لدى الجيش الفرنسي ووضع استراتيجية عسكرية قوية بإمكانها إضعاف قدرات العدو الهجومية

- سوء التنسيق بين مختلف المقاومات الشعبية ومنها سوء التكامل بين مقاومة الحاج أحمد باي في الشرق ومقاومة الأمير عبد القادر في الغرب الجزائري.

-عدم خروج أغلب المقاومات من إطارها المحلي، أي ضمن البادية أو المنطقة... وهو الذي سهل على جيش الاحتلال فرض الحصار عليها وتطويقها والقضاء عليها.

-كان استمرار أغلب المقاومات الشعبية مرتبطا بمصير استمرار حياة الزعيم أو القايد وفشلها وانتهائها مرهون بوفاة هذا القائد.

- قلة وضعف الإمكانيات سواء من ناحية عدد الجنود وتكوينهم أو من ناحية السلاح والعتاد.